

## من أدب الرحلة المقربة وصف البحر (دراسة أسلوبية)

د. محمد السعيد بن سعد  
المركز الجامعي - غرداية

### ملخص:

يقدم الموضوع قراءة في نص الرحلة البحرية لأبي العباس المقرّي، أحد أعلام الأدب الجزائري، وذلك من منطلقات أسلوبية بحسب المستويات اللغوية، لنلج الموروث الفكري عند المقرّي من حيث الصياغة والأسلوب. وقفنا على: الصوت ودلالاته كالراء واللام الانحرافيتين، وعلى البناء النحوي بخاصة الروابط والقصر، وعلى المستوى البلاغي في عدوله وانزياحه. كان أبو العباس في كل هذا يتوكأ على ثنائيات لا تفارقه: ماء وطين، مغرب ومشرق، حل وترحال، خوف وطموح، بر وبحر... ثنائيات شكلت شخصية المقرّي وحياته وفكره.

**الكلمات الدالّة:** الرحلة البحرية، الأدب الجزائري، الصوت، البناء النحوي.

### توطئة:

الرحلة جمع رحل ورحلات الانتقال من مكان آخر<sup>1</sup>، وهي ملازمة للإنسان في كل عصر، وقد ذكرت في القرآن الكريم.

يقول تعالى: {إِلْيَافٍ قُرَيْشٍ، إِبْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}<sup>2</sup>.

كان لأهل مكة رحلتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، من أجل التجارة<sup>3</sup>.

وهي من أوجه السير في الأرض لجلب منافع جمّة، وكثيرا ما يدل الارتحال على شيء من الاطمئنان، ومنها سمي البعير الذي يسافر عليه راحلة.

والرُحَّل: العرب الرحال الذين لا يستقرون بمكان ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى.

ويقال العرب الرُحَّل: والرُحَّل، والرحلة؛ كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى<sup>4</sup>.

وهكذا كان الجاهلي يمر على الديار والأثافي والأطلال ومكان الأحبة فيصفها ويصف

1- المعجم الأساسي العربي، مجموعة من الأساتذة، ص: 512.

2- سورة قريش، الآية: 02.

3- صفوة التفاسير، الصابوني، ص: 606/3، شركة الشهاب الجزائر. وينظر تفسير التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، ص: 559/3، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

4- المعجم الوجيز، المعجم العربي، مادة رح. ل. ص: 261.

الطريق والناقة اللاعبة، إلى أن أصبحت الرحلة أدبا مستقلا من فنون النثر العربي التصقت بمعاناة الكاتب، والإنسان يصف الأوضاع ويحمل الهموم ويعبر عن قضاياه .

كان للأديب المغربي حظه من هذا الفن (أدب الرحلة)، بخاصة الكاتب الجزائري. بحيث اتخذت الرحلة وجهتين:

وجهة خارجية: في اتجاه الوطن العربي والإسلامي. والرحلة الداخلية التي شملت كل مناطق الوطن: شرقا وغربا، جنوبا شمالا<sup>5</sup>.

وكانت لهذه الرحلات دواعيها ودوافعها التي أدت بالمغاربة إلى الانسياح في البراري والبحار، والحق أن الدافع الديني كان أقوى العوامل التي جعلتهم يتوجهون شطر المشرق بحيث تتجمع كل الخيوط التي تشد أفئدتهم، وعلى رأسها البقاع المقدسة، حيث المسجد الحرام (الكعبة الشريفة)، والمسجد النبوي الشريف<sup>6</sup>.

وعلى كل فقد تعددت الأشكال في الرحلة الواحدة، كما اختلفت صور الإنسان والمكان في انطباعات الرحالين الذين انعكست في رحلاتهم جوانب مختلفة من الأماكن والمدن التي رأوها. والأوطان التي حلوا بها. وللافت للأنظار في هذه الرحلات، هو بروز العمق الإسلامي والعربي؛ برؤية مثالية لأمة إسلامية موحدة لا تحول بين أقطارها الحواجز الجغرافية ولا السياسية وولا حتى اللغوية .

كما أن الرحلة بدت وسيلة تثقيف وتوعية، وإشباع رغبة الرحالة في الاطلاع، عبرت عن كثير من القضايا، كما نقلت لنا كثيرا من المواقف والمشاعر والآراء والانطباعات لكاتب لهم اعتبارهم الكبير من أمثال أبي عباس أحمد المقرئ، والذي أجمل لنا رحلاته في ثلاث مراحل اجتماعية، بين ثلاث أقطار عربية إسلامية :

- مسقط رأسه تلمسان حيث قضى فترة طفولته وشطرا من شبابه بين أحضان أسرته التي كانت تتمتع هناك بالعلم والمعرفة وتحظى بالسمعة والجاه.

- ثم رحل إلى المغرب الأقصى أين قضى فترة كهولته، في المجتمع يتمتع بالمعارف والتجارب الناجحة بحيث أسندت إليه مهام الإمامة والخطابة والفتوى القضاء.

- رحل بعد ذلك إلى المشرق العربي: بين مصر والشام والحجاز وبيت المقدس، تراوحت بين الانعزال والعطاء والاطمئنان، جاء في مجلة دراسات: «وهكذا كانت بيئة المقرئ هادئة الطائر في تلمسان، مضطربة الجناح في المغرب الأقصى، مطوقة بالخموم والانعزال بمصر، محاطة بسياج السعادة وأهداب الآداب وبحر المعارف في دمشق والشام، وقد أثرت هذه البيئة بمراحلها الثلاث ومختلف مؤثراتها في شخصية المقرئ الثقافية، وجعلت منه رجلا ذا إرادة جبارة وصبر جميل، وعزم صارم، وعلم متين، وأدب رقيق»<sup>7</sup>.

المقرئ بهذا يعد من الأدباء الذين مثلوا الأدب الجزائري والمغربي عامة وفي عصر

5- أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، د. عمر بن قينة، ص: 200، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد: 2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.

6- أدب الرحلة عند المغاربة والأندلسيين (ق 8 هـ)، عبد العزيز بومهرة، ص: 158، مجلة دراسات، العدد: 02 جوان 2005، جامعة الأغواط.

7- ينظر المقرئ وكتاب نفخ الطيب، محمد بن عبد الكريم، الدكتور، ص: 258، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الضعف بخاصة، طوحت به طوائح الاغتراب<sup>8</sup>، وقد تنقل في كثير من البلدان التي يقصدها مثله من العلماء.

وما يشدنا في كل هذا رحلته من المغرب إلى المشرق (مصر) بالذات بحرا، يقول الدكتور أبو القاسم سعدا لله: «ويبدو أن طموحه والخوف من العودة إلى المغرب هما اللذان كانا وراء بقائه في المشرق فقد سافر من الجزائر إلى تونس بالبر أيضا، ولعله قد مر في طريقه بقسنطينة والتقى بعلمائها كما يفعل معظم الحجاج، ونال في تونس من حسن الاستقبال ما شهد له مرافقه عالم تونس عندئذ؛ محمد تاج العارفين العثماني، فقد ركب مع المقرّي السفينة (أي سافرا بحرا) ونزلا في مصر»، فما كان من المقرّي إلا أن وصف الرحلة بل وصف أهوال البحر وصفا دقيقا مجسما لتقريب الفكرة من ذهن المتلقي متكئا على الانزياح وغير ذلك من الوسائل الأسلوبية التي تستوجب منا تحليل ظواهرها الدلالية.

من هذا المنطلق ارتأينا أن تقارب هذا النص من منطلقات أسلوبية، بحسب الشبكات والمستويات والكلمات المفاتيح، لنلج المورث الفكري عند أبي العباس من حيث الصياغة والأسلوب، وقبل المعالجة للنص الرحلاني، نقول: من هو المقرّي؟

المقرّي متنقلا:

أبو العباس أحمد بن محمد المقرّي التلمساني مولدا ونشأة، (حافظ بلاد المغرب وأديبها ولسانها المتحدث بفضلها، ومؤرخها الناشر لمحاسنها)<sup>9</sup> نزيل فاس ثم القاهرة.

المقرّي بفتح الميم وتشديد القاف مفتوحة وآخره راء مهملة، ويذكر بعضهم أنه بفتح الميم وسكون القاف، لغتان أشهر هما الأولى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان، وقال ياقوت الحموي<sup>10</sup>: مقرّه بفتح ثم السكون وتخفيف الراء: مدينة بالمغرب في بر البربر، قريبة من قلعة بني حماد، وبينها وبين طبنة ثمانية فراسخ.

تلقى علومه على يد بعض علماء تلمسان، ظل وفيها لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاه والحظوة في القاهرة ودمشق، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق، ويقارنها بفاس ودمشق، وعندما كان في المغرب موفور الكرامة لم يصبر على زيارتها، ولاغرو في ذلك، إذ بالإضافة إلى أصوله العائلية حيث أجداده ووالده. وجمال تلمسان الطبيعي، يوجد هناك عمه سعيد المقرّي أحد الذين أسهموا في تكوينه تكويننا أدبيا موسوعيا<sup>11</sup>.

يقول في الحنين إلى مسقط رأسه (تلمسان)<sup>12</sup>:

8- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرّي أحمد، ص: 04/1، (المقدمة)، تج: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

9- نفسه، ص: أ - (المقدمة).

10- نفس المرجع السابق، ص 08..

11- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الدكتور، ص: 221/2-222.

12- البيت من بحر الطويل.

بلادُ بها عَقُّ الشُّبابِ تَمائمي  
قد حث بنا الشوقُ بين الحيازِمِ

كسأها الحيا بردَ الشبابِ  
فإنها ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأئما

ويقول أيضا<sup>13</sup> :

بكين وقد يبكيك ما أنت ذاكر  
بكل خليج تمتته الأزاهر  
تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر

وأربع أحباب إذا ما ذكرتها  
بطاح وأدوح يروقك حسنها  
فما هو إلا فضة في زبرجد

إلى أن يقول :

وروحي وقلبي والمنى والخواطر  
بها ملك للذات ناه وأمر  
موارد أفرح تلتها مصادر

بلادي التي أهلي بها وأحبي  
ليالي كانت للشبيبة دولة  
سلام على ذلك العهود فإنها

ويقول أيضا :

كلف الفؤادُ مجبها وهوها  
يكفيك منها ماؤها وهوها

بلد الجدار ما أمر نواها  
يا عاذلي في حبها كن عاذري

سافر المقرّي إلى فاس بالمغرب الأقصى محطته الثانية، وقضى فيها فترة من حياته<sup>14</sup>، قصد هذه الديار حبا في العلم والعلماء، وهياما بالأداب والأدب، أخذ عن بعضهم كما أخذوا عنه، ولكن المغرب لم يكن في حالة استقرار سياسي، مما جعل المقرّي يفكر في الارتحال بعد أن مكث بالمغرب حوالي ربع قرن<sup>15</sup>.

ويسجل صديقه ومعاصره عبد الكريم الفكون سبب هجرته قائلا: بعد فساد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها، حتى تداعت للخراب ارتحل المقرّي، بل ويلمح أبو العباس نفسه إلى هذه الرحلة: «لما قضى الله برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طار في وتلاذي بقطر المغرب الأقصى»<sup>16</sup>.

على أن المقرّي كان ينوي العودة إلى المغرب لأنه ترك فيه أهله وابنته ومكتبة فاستقر بالجزائر سنة 1027م بعد أن مر بتلمسان، وهناك في الجزائر اتصل أيضا بالعلماء وشرع في التدريس، يقول الفكون: «إن المقرّي نزل دار الجزائر على فقهاؤها وعلماؤها وتصدى للتدريس بها، وقرأ بها التفسير وكانت رحلات أبي العباس الثلاثية إلى المشرق بداء بمصر

13- ينظر، الأدب العربي الجزائري (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، محمد بن رمضان شاوس والقوفي بن حمدان، ص: 45 وما بعدها، 2001/1422، داود بركسي، حي الكيفان، تلمسان.

14- مصادر الأدب في المكتبة العربية، عبد الطيف صوفي، ص: 266، دار الهلدي (طن.ت) عين ميله الجزائر.

15- تاريخ الجزائر الثقافي، سابق، ص: 223/2.

16- ينظر، نفسه، ص: 223/2 وما بعدها.

التي سافر إليها عن طريق البحر، حيث قاسى في هذه الرحلة الشيء الكثير، هذه الرحلة موضوعنا الرئيس.

ثم توجه إلى الحجاز، ومن مصر أيضا توالى أسفاره إلى الديار المقدسة خمس مرات، كانت حافلة باللقاءات العلمية: إعطاء الدروس، وإملاء الحديث الشريف بجوارروضة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم سافر إلى دمشق وفيها أيضا اجتمع بعدد من علماء الأندلس وأدبائها بصورة خاصة، وطاب له المقام بدمشق، وكان يحاضر عن تاريخ الأندلس وأدبائها يقول في دمشق؛ محاسنها بخاصة<sup>17</sup>:

أما دمشق فجنة	لعبت بألباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي	منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحة	فاخرت بذوي الحقائق

عاد في أواخر حياته إلى مصر وراح يدرس في الأزهر حتى وافته الميئة سنة 1041م ودفن بها، مخلفا عددا من المؤلفات، وهي أصلق دليلا على نبوغه.

### الرحلة البحرية:

نلج هذا العنصر من خلال شخصية المقرّي العلمية وبخاصة الأدبية إذ إن هذه الشخصية برزت في ستة فنون رئيسة من العلوم الإنسانية:

- التفسير: ولا أدل على ذلك من كتابه إعراب القرآن الذي جاء فيه بما يبرهن على طول باعة في فن التفسير، قوله في الآية الكريمة:

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}<sup>18</sup> يقول: عطف على الوسواس، أي من شر الوسواس والناس «ولا يجوز عطفه على الجنة؛ لأن الناس لا يوسوسون في صدور الناس إنما يوسوس الجن، فلما استحال المعنى حملته على العطف على الوسواس»، ويعلق الدكتور محمد عبد الكريم قائلا: «فهذه الدقائق المفيدة لا ينتبه إليها إلا من ضرب بسهم وافر في ميدان هذا الفن»<sup>19</sup>.

ووصف المحبي المقرّي، يقول: «كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات»<sup>20</sup>.

- أما الحديث: فكان أبو العباس حجة بالغة في حفظ الحديث الشريف وضبط طرق رواياته ومعرفة رجال الأسانيد وشيوخه في ذلك كثر، منهم عمه سعيد المقرّي.

- وفي الفقه: كان متضلعا في أصول الفقه وفروعه، شغل منصب الإفتاء بفاس بجامع القرويين، ومن يطالع مؤلفة يجد فيها تحقيقاته التي تدل على رسوخ قدمه في هذا الفن،

17- البيت من مجزوء الكامل.

18- سورة الناس، الآية: 05.

19- نفع الطيب، سابق، ص: 231.

20- نفس المرجع السابق، ص: 670.

وكان كثير الاعتزاز بانتمائيه إلى مذهب الإمام مالك، شديد الفخر باعتناقه عقيدة الإمام الأشعري في التوحيد، نراه في جل كتبه ويفتتحها بعبارات الانتساب إلى هذين المذهبين: «يقول أحمد الفقير المقرى المغربي المالكي الأشعري»<sup>21</sup>.

- أما التوحيد: فكانت له قدم راسخة فيه؛ درسه وصنف فيه، كان يلقي درسه في جامع الأمويين بدمشق.

من مؤلفات المقرى في التوحيد: إضاءة اللجئة في عقائد أهل السنة، وحاشية أم البراهين.

- وفي التصوف: ينظر إلى المقرى على أنه علم وعمل، والتصوف الحق عنده هو عالم عامل بعلمه، تحدث في كتبه عن رجال التصوف، طريقة العالمين كأبي مدين شعيب، وأبي العباس أحمد بن عاشور غيرهما، وطريقته في التصوف طريقة أبي الحسن الشاذلي «الطريقة الشاذلية».

- وفي التاريخ: إن المقرى أمين في النقل، نزيه صادق النية، مخلص في عمله، صريح في القول، صاحب شجاعة أدبية وصبر على البحث، مثابر على استخراج الحقائق، مدمن على المطالعة، وهذه كلها لعمرى من صفات المؤرخ الحنق.

من جملة ما كتب في ذلك كتاب: أنواء نيسان من أنباء تلمسان، قيل إنه لم يتمه<sup>22</sup>، وكتاب أزهار الرياض؛ به أخبار نادرة عن المغرب الأقصى والأندلس وكذا ترجمة القاضي عياض وما يتصل بشخصيته وأخبار زمانه، وكتاب: «روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراکش وفاس، به جميع ما يتصل برحلته الأولى إلى المغرب الأقصى، ومن هذه المؤلفات التاريخية أيضا كتاب عرف النشق في أخبار دمشق.

إن أهم كتب أحمد المقرى المطبوعة على الإطلاق<sup>23</sup>، موسوعته «نفخ الطيب»، والذي ألفه بوحى وبإلحاح من أعيان الشام وعلمائها، إلا أنه يبدو أن أبا العباس كان قد شرع فيه أثناء وجوده بالمغرب، بحيث إن موضوعه الرئيس: لسان الدين بن الخطيب والأندلس، يتضح من خلال هذا إعجاب المقرى بلسان الدين بن الخطيب متأثرا به في أسلوبه الأدبي: تحرير العبارة وانتقاء الألفاظ والسجع الجميل وتوشح النثر بالشعر، رغبة منه أن يكون كتابه مرجعا للشعراء والأدباء وطلاب الموعظة.

يقول: «اعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من بيان وسحر، وكفاه أنه لم يرمثله في فنه فيما علمت، ولا أقولها تزكيه له»<sup>24</sup>.

وقيل في هذا الكتاب «نفخ الطيب» لا يفوقه في بابه إلا عمل ابن خلدون في تاريخه، وإذا كان ابن خلدون قد وضع في المقدمة نظرية علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والعمران، فإن المقرى قد وضع في «نفخ الطيب» مقدمة لا غنى عنها في حياة الأندلس، وعلمائها وشعرائها، إلى درجة أن وصفه شكيب أرسلان: بأنه حقيبة أنباء، وقمطر حوادث، وخزانة

21- نفسه، ص: 295، ينظر إضاءة اللجئة، المقرى أحمد، ص: 265.

22- تاريخ الجزائر الثقافي، سابق، ص: 221.

23- نفس المرجع السابق، ص: 228/2.

24- ينظر، نفخ الطيب، سابق، ص: 363/01.

آداب، وكشكول لطائف، وديوان أشعار، ويقول: من لم يقرأ «نفخ الطيب» ليس بأديب<sup>25</sup>.

في هذه الخزانة الأدبية استوقفنا الرحلة البحرية التي عدها بعضهم من نماذج أسجاع المقرري المعسولة<sup>26</sup>، ذلك أن هذه الرحلة البحرية تدخل ضمن نثر المقرري الذي ينقسم إلى نوعين:

- النثر العلمي ويتصف بسلاسة التركيب، والسلامة من التعقيد، وقرابة المعنى، أي يتصف بالمباشرة ومطابقة للفظ للمعنى، ومن نماذج ذلك قوله: «من الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس: أبو مروان عبد الملك ابن أبي بكر محمد بن روان بن زهر، الإيادي الأندلسي ... إلخ<sup>27</sup>.

### - النثر الفني ومنه:

أ- نثره المرسل: كثيرا ما يستعمله في وصف الأشياء وتراجم الأشخاص وسرد الأخبار والروايات، من نماذجه: القصد المشهور من أخبار الرميكية<sup>28</sup>، يقول: «ولا يوم الطين، وذلك أنها رأَت الناس يمشون في الطين، فاشتتهت المشي في الطين فأمر المعتمد، فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرايل، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواربها، وغاضبها أي المعتمد في بعض الأيام فأقسمت أنها لم ترمنه خير قط، فقال: «ولا يوم الطين؟» فاستحيت واعتذرت، وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرَيْتَ النَّارَ فَلِمَ أَرَّ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْطَعُ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِكُفْرَنِ) قِيلَ: يَكْفُرُنَ بِاللَّهِ، قَالَ: (بِكُفْرَنِ الْعَشِيرِ وَبِكُفْرَنِ الْإِحْسَانِ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) رواه البخاري<sup>29</sup>.

إنك لتلاحظ في هذه السطور وصفا بجزالة اللفظ، وقصر الجمل، وبساطة التركيب، هذا أسلوبه في نثره المرسل.

ب- النثر المسجع: وهذا بيت القصيد الذي نحاول مقارنته أسلوبيا باعتماد المفاتيح والشبكات ومن نماذجه نص «وصف البحر وأهواله»، والتي عكس بصدق مهارته الأدبية في صفاء العبارة، ونقاء الديباجة، وإشراق المعنى ووضوحه، واعتماده الاختيار الدقيق والعدول المعبر، إذ تزدحم التشبيهات على ذهنه فتتناسب على أثلاث قلمه لا يستطيع لها دفعا ولا يقوى على رد جامحها، وإنه ليخجل إليه أنه قد قصر حين يحبس قلمه أو يقف به دون بلوغ الغاية.

وهاهو يبدأ هذه الرحلة بالانتقال من وسط إلى وسط آخر تصحبه في كل هذا لوعه الفراق

25- ينظر، تاريخ الجزائر الثقافي، سابق، ص: 231/2، وينظر الحلل السنديمية «شكيب أرسلان» ص: 153/2.

26- ينظر، نفخ الطيب، سابق، ص: 306-307، وينظر نفخ الطيب «سابق» ص: 44-45.

27- ينظر، نفخ الطيب، ص: 13/3-14.

28- الزميكية، زوجة المعتمد بن عباد.

29- ينظر، نفخ الطيب، سابق، ص: 09/2.

والبعد عن الوطن، ولا عجب إذ هو القائل:<sup>30</sup>

وقفنا بريح الحبِّ والحبِّ راحل      نحاول رَجْعَهُ لنا ويحاول  
وألقت دموعَ العين فيه مسائلا      لها عن عبارات الغرام دلائل

الوسط الأول هو البر متوجها إلى مصر، ليمتطي الوسط الثاني وهو البحر، يقول: «ثم جد بنا السير في البر أياما، ونأينا عن الأوطان التي أطيننا في الحديث حبا لها، وهياما، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما، إلى أن ركبنا البحر»<sup>31</sup>.

ثم شرع يطلعنا على أحوال الرحلة وأهلها، واصفا وصفا دقيقا الأمواج المكشرة على أنيابها وقد أيقظتها الرياح من سباتها، وأثرها في المجال التي تتخللها فلم يبق في الوجود إلا صوت تلك الرياح والأمواج، ولم يبق من منح إلا الله، لأنهم أصبحوا جميعا كدود على عود، فالسما من فوقهم والماء من تحتهم يغور بالسفينة الفنية ويعلو بها أخرى.

كل هذا ألفتناه في فقرات أدبية المذاق، فلسفية الفكر، دينية النزعة، ساقها أبو العباس في أسلوب انزياحي متين في تركيبه، سلس في مخارجه ولن نجانب الصواب إن قلنا: إنه من السهل الممتنع.

والنص غني بسمات أسلوبية جديرة بالمباحثة والمقاربة، ذلك ما يجعلنا ندع الرحلة ووقائعها لننزلق إلى هذه السمات المميزة لنص الرحلة.

الخصائص الأسلوبية للنص: نقارب عنصر السمات والخصائص وفق الخطوات التحليل الأسلوبية المستوياتي: المستوى الإفرادي والذي يضم: البناء المعجمي والبناء الصرفي، والمستوى التركيبي ويمثل: التركيب المعياري السطحي النحوي، والتركيب العميق البلاغي، أما البناء الدلالي فنعتقد أنه يطال كل المستويات إلا ما كان من حقول دلالية التي تستدعي التعامل كبناء مستقبل.

بداية نشير إلى أن نص الرحلة قيل في وسط بين وسطين: وسط اليابسة في بلاد المغرب وسط اليابسة في بلاد المشرق (القاهرة)، وقد شمل هذا الوسط الأخير أيضا وصفا من المقري يدل على أنه عانى معانيتين في البحر فزعا من أهواله، ومعاناة أخرى في البر خوفا من كثرة الطرق وتعرجاتها والفيافي وقفرها وما بها من وحشة مطبقة وغيرها.

وفي الرحلة البحرية نفسها نلفي كلمات مفاتيح أو عبارات تدل على البحر وأهواله تباعا بها نصل إلى دلالة جوهرية هي أن المقري من المطبوعين والمغرمين بوصف الرحلة وتتبع دقائقها، ناهيك عما يتخلل هذه المفاتيح من اختيار وعدول في جميع المسويات والتي تعد من محددات التحليل الأسلوبية.

فعلى مستوى البناء الصوتي، نجد حرف الهاء قد شكل تكراره ظاهرة أسلوبية ذات بل، توحى بما يقتضيه الموقف من فرع، مشيرا إلى مصدر الخطر والمعاناة الذي هو الثلاثي: الأمواج والرياح والسفينة.

30- البيت من بحر الطويل.

31- ينظر نفخ الطيب، سابق، ص: 44/1.

يقول: «... قد أزعجتها ألف الريح وكرها، كم نهبت اللجج من سكرها، فلم يبق شيئاً من قوتها ومكرها»<sup>32</sup> ويقول على لسان الآية الكريمة: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهَ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}،<sup>33</sup> يواصل قائلاً: أيسنا من الحياة لَصَوْتِ تِلْكَ الْعَوَاطِفِ وَالْمِيَاهِ، فَلَاحِيَا اللَّهِ ذَلِكَ الْهُولُ الْمَزْعَجُ وَالْمِيَاهُ<sup>34</sup>، ويواصل: «... فتخال الجو يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيديه من نواصيها، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف في استقلالها، وقد شرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها، وأذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها»<sup>35</sup>.

ولكنه بعد ذلك ينوع في مبنى الصوت، من الراء الانحرافية، والألف الهوائية، والباء الشفوية والمطوقة والقاف الاستعلائية والتي تشترك مع الباء في القلقة، والنون الغنية والجيم التسريبيه، ودلالة هذا التنوع في الأصوات إنما هو القلق والحال المتغيرة والمتقبلة تلعب الأحوال والأخطار المحيطة بالسفينة والاضطراب الذي يصيبها، في كل وقت وحين وهو ما يعكس كذلك مدى تحكم الكاتب في زمام اللغة.

الهاء حرف مهموس رخو، للتلاشي، من صفاته: الشدة والفعالية والاهتزاز، يوحى بالاضطرابات النفسية، ويدل على حالة الإنسان المنفعل الذي يدخل في حالة يأس أو بؤس أو حزن أو ضياع، ولو لعارض مفاجئ، لا بد أن تنقبض معها نفسه فينعكس ذلك على جملته العصبية، والراء مجهور متوسط الشدة والرخاوة، من صفاته الملكة وشيوع الوصف، فيه التمفصل، يعطي مرونة للغة العربية، يأتي أحياناً للتعبيري عن مصاهر الخوف والاضطراب والتكرار، استعمل في القرآن الكريم في المعارك التي خاضها المسلمون مع الكفار، كما في سورة القمر، والألف فيها خاصية الامتداد في الزمان والمكان، والباء بها شدة، والجيم حرف شجري مجهور انفجاري احتكاكي، يدل على الشدة والفعالية المادية والفعالية النفسية، والدال حرف مجهور شديد يستعمل في التصلب والتغير والتنوع، وهكذا فتنوع هذه الأصوات من حيث الصفات يجرننا على مستوى النص إلى تنوع آخر حسي وشعوري، بحيث نجد أن التاء والدال لمسيان، والراء ذوقي، والهاء شعوري، والقاف سمعي، والألف بصري، مما يدل على أن الوقع كان شديداً على الكاتب، فاستسلم بكل جوارح، وتفاعل مع الحدث بكل حواسه.

أما على مستوى البناء المعجمي فقد غلبت على النص ألفاظ الهول والخوف واليأس: بواسر، صفير، زفير، الهول، يضطرب، تلطم، يأخذ بنواصيها، ساءت... إلخ.

أما البنية الصرفية: فقد غلبت على النص الأفعال الدلالة على التحول، وتزاوجت بين الماضي الذي يدل على الاسترجاع والتذكر، والمضارع للتقرير والتأكيد.

وعلى المستوى التركيبي: البناء النحوي، نلفي كثرة الروابط: حروف الجر، وحروف العطف كمن التي للتبعيض، والواو من حروف العطف لمطلق الاشتراك، وجدنا انزياحاً على مستوى البنية السطحية تقديم شبه الجملة للاهتمام بالمقدم، يقول: فسمعنا للجبال صغيراً،

32- نفس المرجع السابق، ص: 46/3.

33- سورة الإسراء، الآية: 67.

34- ينظر نفخ الطيب، سابق، ص: 46/3.

35- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة..

وللرياح دويًا.

ونجد تركيب القصر والذي يدل على أن الأمور لم تعد ني يد الإنسان إذ لم يبق من منج غير الله تعالى، لما في أسلوب القصر من نفي الاحتمال يقول علي لسان الآية: {وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله<sup>36</sup>.

وأما المستوى البلاغي: فتطالعنا الانزياحات المتمثلة في الاستعارات، وهي صورة تقرب المعنى للقارئ وتوضحه تشخيصًا وتجسيمًا يقول: والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب<sup>37</sup>، وتمعن ما في هذه الصورة من تجسيم «ونحن قعود كدود على عودا»<sup>38</sup>.

ولالإيقاع حظه من النص حتى كاد يكون نصًا شعريًا، لكثرة السجع، المتباين الفواصل ليعطي النص نغما موسيقيًا داخليًا وخارجيًا، ويبعد السأم والملل عن القارئ، زيادة على الطباق المتناثر في النص هنا وهناك، وهذا الإيقاع يدل على مدى توافق اختياري الحروف في أصواتها، ومدى توافق اللفظ والمعنى كل هذا مع الحدث المعبر عنه، تلك إذاهم السمات الأسلوبية للنص.

### الخاتمة:

لاشك أن النثر الفني قد تقدم على يدي المقرّي في الوقت كادت لاكتتب الأقلام غير الشروح والمنامات فليس سهلاً أن يوفق أي كاتب إلى نسج أمثال هذه الأسجاع «التي بلغت أوج البيان» وأصبحت مضرب الأمثال في البلاغة عصر ذلك.

ناهيك عن التناص القرآني الذي يدل على ثقافة أبي العباس المتشعبة بالروح الإسلامية: «يسر» من قوله تعالى: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}<sup>39</sup>. وللريح دويًا عظيمًا وزفيرًا، من قوله تعالى: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}<sup>40</sup>. بل كدنا نجزم أن النص مبني على فكرة آية كريمة من الذكر الحكيم، {وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}<sup>41</sup>.

إن الخطاب يستحضر مشهدًا عظيمًا من مشاهد أهوال البحر، والمستقري لهذا النص يلفيه يعج بمجموعة من المعطيات الدلالية تعكسها شبكة العلاقات المتجانسة بين الدوال تشاكلا وتقابلا، فأنمر ذلك نسيجا إيقاعيا فريدا ينطق بحشد من المعاني.

إن المتبع للنص يجد المقرّي كان مهيبًا نفسيا لهذه الأهوال من خلال عنصر الربط والرجوع إلى الأصل: ثنائية الماء والإنسان (الطين).

36- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

37- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

38- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

39- سورة المدثر، الآية: 22.

40- سورة الفرقان، الآية: 12.

41- سورة الإسراء، الآية: 67.

صاغها في معادلة: ماء ← إنسان  
ماء ← طين  
ماء ← طين = خسارة

ومن الثنائيات التي يقف عليها الدارس للنص:

المغرب ← المشرق  
الحل ← الترحال  
الطموح ← الخوف  
البر ← البحر  
الشعر ← النثر  
المقري ← ابن الخطيب

ثنائيات شكلت شخصية المقري ووجهت حياته فكرا وسلوكا، فوظفها في إنشائه، فأصبحت خصيصة من خصائص أسلوبه.

إن الكاتب يطبق مبدأ ما كان، فعلى اعتبار ما كان، وعلى اعتبار الواقع المشاهد: عادة الماء عدو الطين، والإنسان طين، فعن طريق التعدية يصبح الماء عدو الإنسان.

هذه المعادلة خيمت على عقل الكاتب ودخل بها البحر، فكان الماء في نظر الإنسان عدوا.

والحاصل أن أبا العباس قد أجال فني: الشعر والنثر وحاز قصب السبق في مضمارهما، وقد مكنه من الأخذ بناصيتها كثرة حفظه لأشعار العرب واستيعابه لأخبارهم، فأصبح شخصية أدبية معبرة، واستحق قول الخفاجي فيه: «... أما الشعر فهو أصمعي باديته، وسلمان بيته، وحسان فصاحته، فما مس قصب الأقلام إلا سجدت شكرا...».

ولذلك كان طموحه لا حدود له، لا يشبهه بين الشعراء، والأدباء إلا طموح المتنبي، يقول عن نفسه.

ولي عزمٌ كحد السيف ماضٍ ولكنَّ الليالي من خصومي

ومصنفاته كلها ممتع وكلها مفيد، فكان بحق من مثل الأدب الجزائري خاصة والمغربي عامة في عصر الضعف بخاصة في أدب الرحلة، ولا أحسب إلا أنه يريد أن يبث رسالة إيمانية هي الاعتماد على الله سبحانه.

### المراجع باللغة العربية:

1. أدب الرحلة عند المغاربة والأندلسيين (ق 8 هـ)، عبد العزيز بومهرة، مجلة دراسات، العدد: 02 جوان 2005، جامعة الأغواط.
2. أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، د. عمر بن قينة، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد: 2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.

3. أدب العربي الجزائري (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، محمد بن رمضان شاوس والقوفي بن حمدان، 1422/2001، داود بركسي حي الكيفان، تلمسان .
4. إضاءة الدجنة، المقري أحمد، دار الفكر للنشر والتوزيع.
5. تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الدكتور. دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط: 01، 1998م
6. تفسير التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
7. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، طبعة مصر، 1936.
8. صفوة التفاسير، الصابوني، شركة الشهاب الجزائر
9. مصادر الأدب في المكتبة العربية، عبد الطيف صوفي، دار الهدى (ط.ن.ت) عين ميله الجزائر.
10. المعجم الأساسي العربي، مجموعة من الأساتذة.
11. المعجم الوجيز، المجمع العربي.
12. المقري وكتاب نفخ الطيب، محمد بن عبد الكريم، الدكتور، دار مكتبة الحياة، بيروت.
13. نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري أحمد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.